دراسات في القصة العربية

«أشباح أبطال»

بقلم محمد حميد

تمهيد

الاتجاهات السائدة في القصة العربية ، تكاد تنحصر في : **الاتجاه الكلاسيكي** « تيمور » ـ **الاتجاه الرومانسي العاطفي** « يوسف السباعي ـ عبد الحليم عبدالله » (للسباعي قصص وروايات اجتماعية ـ واقعية ، ولكن اللون العاطفي هو الغالب عليه) **الرومانسي القائم على الاثارة الجنسية** « احسان عبد القدوس » **الواقعية الالتزامية** « الشرقاوي » ـ **الواقعية** « نجيب محفوظ ـ سهيل ادريس » (في روايته الاخيرة : **الخندق الغميق** . أما روايته الرائعة : الحي اللاتيني ، فلا يمكن حصرها في اتجاه وحيد . انه يزاوج فيها بين الاتجاه العاطفي ، والجنسي والقلق السيكولوجي ـ) **الاتجاه النفسي** ، او القصة التحليلية التي شاعت حديثا في الادب بتأثير مدرسة التحليل النفسي ، وهذه القصة مشوبة احيانا بمسحة وجودية . ولم نعثر على ممثل اصيل لها ، سوى بعض القصص المتفرقة لكتاب مختلفين ، ولكن « زكريا تامر » ـ وهو قاص لم يتبلور بعد ـ ابرز من يسير في هذا الاتجاه(١) .

هذا عن القصة العربية عامة ، اما القصة في الاقليم الشمالي ، فقد غلب عليها الطابع الرومانسي . وعلى الرغم من كثرة الصائلين في هذا الميدان ، فان السابقين فيه ، ثلاثة : الدكتور شكيب الجابري ـ الدكتور عبد السلام العجيلي ـ مطاع صفدي . وهؤلاء هم الذين يستقطبون التاريخ الادبي للقصة في الاقليم الشمالي . أما البقية ، فلا اكثر من محاولات .. تنجح مرة ، وتخيب مرات .

هذا في الادباء ، اما الاديبات ، فان السيدة « الفت ادلبي » تعتبر ابرز ظاهرة ادبية بين المشتغلات في الادب عامة ، والقصة خاصة .

مدار حديثنا الآن : مطاع صفدي، في مجموعته الاولى: اشباح ابطال ـ ترى أين يقف مطاع ؟

*

لا ينضوي مطاع تحت أي من هذه الاتجاهات ، انه يتفرد باتجاه خاص يعتبر تجديدا حقيقيا في القصة العربية ... وبه عرف مطاع . هذا الاتجاه او التجديد ، يتجلى في ناحيتين : **الاولى ـ التزام القضايا القومية العربية . الثانية ـ ادخال الفلسفة الى الادب** ، موجدا بذلك ما يمكن ان نطلق عليه اسم : القصة الميتافيزيقية ، وهو يزاوج بمهارة بين الاثنين : ان معظم قصصه القومية ذات امتداد ميتافيزيقي بمعنى ان القضايا القومية معروضة على قاع ميتافيزيقي ، واحيانا « وجودي » . والصدى الوجودي ، دخيل على مطاع بتأثير ثقافته الفلسفية ، ولكنه لا يقف عنده ، بل يتخطاه ، ليعطي « انسانه » في معضلاته المنبثقة من صميم الذات .

ومنعا للالتباس ، سنحدد ما نعنيه في هذا البحث بكلمة « ميتافيزيقي » : النزوع الغيبي ، او « السر » المبهم ، المجهول ، الذي تنطوي عليه الذات . هذا النزوع الذي يدفع البطل الى سلوك يستعصي على التفسير العقلي ، والذي لا يمكن تبريره باعتبارات سيكولوجية .. اجتماعية .. الامر الذي يوقع البطل ، والقاريء معا ، في حيرة لعدم قدرة احدهما على ايجاد تفسير ما ... لهذا السلوك .

ان بطله .. انسان غير نموذجي ، ويتخطى كافة الاطر ، وهو بعد ، ليس مما يفسر بمعطياته الفكرية او العاطفية . انه اشبه بالطفرة ، ويستعصي على اي تفسير . وهذا ما يجعل قصص مطاع صعبة الفهم نوعا .. على القاريء السطحي ، العادي ، لان مثل هذا القاريء يطلب عادة : موضوعا عاطفيا ، بسيطا ، مسلسلا .. قابلا للتأويل بالمقاييس المألوفة ، واسلوبا منمقا ، وذلك بقصد المتعة العابرة السريعة . وهذا هو سبب نشوء الرأي القائل (وهو رأي سمعته اكثر من مرة) بأن قصص مطاع تتصف بالغموض والابهام ! ان مثل هذا الرأي ، في غاية الخطأ والجهل .

ان عمق القصة عنده ،و متعتها ، وفنيتها ، لا تكمن في اثارتها العاطفية ، ولكن بما تعطيه من حيوية وتأجج مأسوي . واذا اردنا ان نتبع مواضعات النقد المألوفة ، فاننا نقسم القصة الى : الاشخاص ـ الحادثة ـ الاسلوب . ان **«الشخصية» هي التي تسود قصص مطاع** . بمعنى ان انسانا رئيسيا يستقطب الحوادث والافكار، اما الشخصيات الثانوية بالنسبة لهذا البطل ، فهي بمثابة دمى يحركها البطل ويعرب بواسطتها عن نفسه .

و « البطل » عند مطاع ، ليس تجسيدا لصفة انسانية عامة ، مشتركة « كالغيرة ، الحسد ، البخل ، الغرور

---

(١) التمهيد الذي قدمنا به لدراسة هذه المجموعة ، ليس رايا نهائيا. انها فقرات من دراسة لنا ستظهر قريبا بعنوان : القصة العربية . وهي دراسات تاريخية ـ نقدية .

الاخلاص .. شخصيات شكسبير » بل هو شخصية فريدة انه فرد مستقل بذاته . ومطاع يملك قدرة خارقة على سبر اغوار هذه الشخصية . وبطله هذا ، بما له من كثافة وعمق وتفرد ، يطغى على كل شيء في القصة ويبتلعه . وعندما ننتهي من قراءة احدى قصص مطاع ، فان ما يبقى منها في الذهن ، « انسانه » الرئيسي الذي يفرض نفسه علينا بعنف لا يقاوم . ولم يخرج مطاع عن هذه القاعدة الا في قصة : المزيفون والثورة العظيمة . وسبب ذلك ـ وهو اجتهاد خاص ـ ان التجربة الثورية للقومية العربية في الجزائر ، اقوى واعنف من ان يحجب احداثها او يسقطبها البطل . اننا ننسى كافة اشخاص هذه القصة ليلفنا دوار هذه الثورة العميقة .

وفي كافة قصص المجموعة ، الحادثة او الفكرة ، تتضح وتعرض من خلال نظرة البطل اليها ـ انها تأخذ « تقييمها » منه ـ والقاريء المأخوذ بسحر البطل لا يملك الا تبني رايه ، ومطاع يملك مقدرة فذة على وضع القاريء تحت سلطان البطل . أما في قصة : « المزيفون والثورة العظيمة » فالامر على العكس : يتلاشى الابطال لتبرز الثورية ، وعظمتهم ناجمة عن عظمة الثورة التي يقومون بدور فيها .

اما الاسلوب الذي يتناول به الكاتب القصة ، فليس فيه طراوة الخيال او شاعريته ، او هو مما يقرأ عادة بسهولة . انه اسلوب مثقل بمضمون غني لا تحتويه « اللغة » بحد ذاتها . **ان قيمة الاسلوب وامتناعه ، قائم بما يفرضه من توهج وجداني عنيف .**

مطاع صفدي

كل هذا يعطي لقصص مطاع ميزة فريدة : انها ليست للتسلية ، ولا للمتعة العابرة او قضاء الوقت ، كما انها ليست مما يقرأ عقب وجبة من الطعام الدسم !! انها تصيب القاريء بدوار فكري خصب وتعصف بوجوده وتدفعه للتأمل . ان عليه ان يقراها بكل كيانه ، وباخلاص .

هذا عن القصة .. اما اشخاصها ، فانهم ـ على تباينهم في امور كثيرة ـ يكاد ان يلم بهم ناظم اساسي مشترك ، هو انهم : ميتافيزيقيون ـ وهي صفة اولى اساسية . ان مشكلاتهم لا تنجم عن احداث معينة في العالم الخارجي ، بل من الداخل ... بتأثير عنصر غيبي مجهول ! ان البطل مغلق ، مبهم ، ينطوي على « سر » لا يستطيع صاحبه اكتشافه ، الامر الذي يجعل سلوكه غير مبرر ، حتى ليلوح لنا وكأنه سلوك عبثي !.

السبب : ان كافة « معطيات » البطل ، لا تشكل تأويلا لسلوكه ، هذا السلوك الذي يبدو وكأنه ناجم عن «شخص ثالث » يختفي وراء الذات ، هذه نقطة ، النقطة الثانية : ان البطل يبدأ من موقف عادي ... مألوف ، يتطور ويعمق بالتدريج ، ليطرح مشكلات اشمل ، دون ان يكون في ذلك الموقف ما يجعلنا نتوقع هذا التطور ـ هاتان النقطتان، هما بالضبط ما نعنيه بكلمة: ميتافيزيقي . (القمر خلف الجبل ـ دقت الساعة ..)

الصفة الثانية : « الصراع » او النزاع . فالعلاقات الانسانية بين الشخصيات ، علاقة صراع ، فكل شخصية تحاول اخضاع الاخرى وابتلاعها . وهنا يبدو التقاء مطاع مع التفكير الوجودي ، وخاصة مع « سارتر » الذي يرى ان جوهر العلاقات الانسانية : النزاع ، او الصراع .

ولكن الصراع بداهة ، يقتضي وجود طرف آخر يكون موضوعا للنزاع ، كنقيض للذات . وهذه الخاصة،«الصراع» التي تسود ابطال مطاع ، كانت ذات تأثير واضح من اسلوبه: انه لا يستعمل « المنولوج الداخلي » في السرد القصصي ، لان هذه الطريقة في الاسلوب ، تستعمل عند اللجوء لعرض البطل المعزول عن العالم الخارجي ، والمنطوي على ذاته، وهي عزلة سيكولوجية . والعزلة عند نماذج كهذه ، تنطوي على اللامبالاة والرفض العاطفي للعالم الخارجي .. بشيء من الازدراء . وهذا ليس من تفكير مطاع في شيء..

لقد استعمل اسلوب«المنولوج الداخلي» مرة فقط في قصة : مفتاح الاقفال ـ لان عزلة البطل من الاساس ، عزلة سيكولوجية صرفة ، ولكنه ما لبث ان خرج على هذا الاسلوب في نهاية القصة .

ان « انسان » مطاع معزول عن العالم ... متمرد عليه ، ولكنها ليست عزلة نفسية . انه يرقب العالم لينقض عليه ويحطم « مواضعاته » المرتبة . انه موقف استعلاء.

هذا عن الصراع بين رجل ورجل ، اما الصراع بين الرجل والمراة ، فان كاتبنا ينهيه بموقفين : **الاول** انهاء الصراع ببقاء كل ذات مغلقة على نفسها ، ويستعمله فيما اذا كانت المراة مثقفة فعلا : كأن الفكر عنده ، يقتل الغريزة (دماء على الاسفلت ـ الكلمة الضائعة) ـ **الثاني** الحب او الاتصال الجنسي ، ويستعمله اذا كانت المراة عادية .. نموذجا مألوفا (القمر خلف الجبل) ولكن « الجنس » عند مطاع ، ليس بمعنى الاثارة الجنسية .. الرخيصة ، ابدا ... بل اننا لا نلمح شيئا من هذا النوع عنده . الجنس ، وسيلة الرجل لامتلاك المراة .. انهاء للصراع ، وهذا لا شك حدس عميق لطبيعة المراة .

الصفة الثالثة : الحرية ـ سابقا بأن سلوك البطل، ليس مما يبرر .. انه يلوح لنا وكأنه سلوك عبثي .. مبتور الجذور ، ولذا فهو سلوك «حر» . وهذا يقودنا الى تفحص موقف البطل من التجربة الزمنية ، لان الحرية ذات صلة وثيقة بالزمان :

ان سلوك البطل عند مطاع ، ليس تجاوبا او تفاعلا مع مع اي من الازمنة الثلاثة ، او انعكاسا لاحدها . ولو كان كذلك ، لما أمكن وصفه بالحرية . انه يتفاعل مع «اللحظة» وهو مثقل بماضيه وبتطلعه نحو المستقبل ، بحيث ينهار التقسيم التقليدي ، الثلاثي للزمن ، ليصبح وحدة حية معاشة . وعلى هذا يكون « العمل » عند البطل ، تعبيرا عن وحدة الشخصية .. عن الشخصية ككل – وهذا ما يتحقق فعلا في اغلب قصص المجموعة . ان مطاع ، بهذا المعنى ، يتبنى او يلتقي مع الحرية البرغسونية ، التي ترى بان الحرية ، هي العمل او التجربة المعبرة عن الشخصية بأكملها .. عن الذات العميقة في الانسان .

من الملاحظ ان هذا الاجتهاد من قبلنا ، يمكن ان يثار ضده الاعتراض التالي : مثل هذا السلوك ، اذا لم يكن « مشروطا » بزمن وحيد ، فانه « متعين » بالضرورة الماضية ، ومعطيات الحاضر ، وبالامتداد الى المستقبل ، وبذا يكون « مشروطا » بالتجربة الزمنية ، ومعاولا لها – وبالتالي فهو سلوك غير حر .

هذا الاعتراض صحيح ، ونتائجه سليمة ، ولكن مشروعية هذا الاعتراض ونتائجه ، انما تستمد قوتها وصدقها من الاستدلال المنطقي الذي صيغ ، وبني بموجبه الاعتراض . وهذا خاطىء ومردود ، لان السلوك البشري يتمرد ويستعصي على التفسيرات العقلية .

ان «الفعل» عند بطل مطاع ، ولو انه تعبير عن شخصيته بأكملها ، لا يمكن تفسيره او التنبؤ به بموجب ماضي وحاضر ومستقبل البطل . انه تركيب جديد مغاير لاي من العناصر التي يقوم عليها .. انه « طفرة » حية ، وليس حصيلة !..

اصلا (وليس من غرضنا الاستطراد الى مناقشات علمية) هذا هو الخطأ الذي وقع فيه علم النفس في نظرته للانسان : لقد حاول ان يفهم النفس على اساس العمليات او الوظائف النفسية ، كالذاكرة ، الخيال ، الهيجان الخ... وهذا خطأ ! صحيح ان النفس تنطوي على هذه الوظائف ، ولكنها كحركة كلية ،كنزوع كلي ، هي غيرهذه الوظائف .

ان « المركبات » الكيماوية و « الخلائط » المعدنية مؤلفة من عناصر ذات خواص معروفة ، ولكن المركب الناتج ،هو غير العناصر الداخلة في تركيبه .

ان البطل عند مطاع ، معروض ، لا بملامحه الجسدية وصفاته الخارجية ، بل من خلال تفكيره الداخلي ونزوعه العميق . ولا يمكن للقاريء ان يعثر على صفة ما ... للبطل . وهذا نقصا في فنية مطاع وقدرته ، لان الاخرين معروضون بادق تفاصيلهم الخارجية ، حتى لنكاد نعرفهم لدقة الوصف . وبالاضافة لوصف الاشخاص فان كاتبنا يملك قدرة عجيبة على اعطاء العالم الخارجي كافة امتدادات اللون الانساني ، حتى ليشف الحاجز بين الانسان والعالم ، وكأن مشاركة حقيقية قامت بين الطرفين.

*

تحتوي المجموعة على « ١١ » قصة . القصة الاولى في المجموعة :

دقت الساعة منتصف الليل

بطل القصة ، في ملهى ... يستعيد ذكرى قديمة : ماريانا . ماريانا هذه ، راقصة اسبانية من اصل عربي ، عرفها منذ زمن في هذا الملهى بالذات . كانت أمنيتها ان تزور بلاد العرب لتحيي الخيالات التي كونتها عن العمالقة العرب القدماء . ولكنها تصطدم بالتناقض ... فلا ترى شيئا عن اجدادها العرب ، وانما تتلقفها المناضد والجيوب والافواه المعربدة !..

البطل منذ البداية ، معزول عما حوله ، رغم جو الملهى الصاخب . نلمس كثافته ووعيه . انه معزول ، لا بكبرياء فردية او باعتبارات نفسية ، بل بوعي حاد عميق . وهو بعد ، دقيق الملاحظة لا يكاد يفوته شيء . انه يصف الاخرين والجو المحيط به ، وصفا « فوتوغرافيا » ولكن من وجهة نظر ذاتيه .

وكانت جليسته تلك الليلة ، راقصة فرنسية ، ولكنه كان يشرد بذهنه الى الماضي ... الى ماريانا . وتنتهي الليلة، ليلة رأس السنة .. وتدعوه الراقصة للذهاب معها! فيرفض ! وهو سلوك غير متوقع .

النزعة العربية مبثوثة بمهارة في القصة – وهي ، فنيا ، كاملة : وصف الملهى ، الاشخاص ... المشاعر .. وصف دقيق رائع ، مشحون باثارات وجدانية وامتداد فكري . ورغم تداخل الحوادث بين الماضي والحاضر ، فان الكاتب كان يحركها بمهارة ، دون تنافر .

الاطلالة السمراء

وليد ، بطل القصة ... ابن رئيس عشيرة عربية من الاردن . لاجيء في دمشق مع رفاق آخرين . يقطعون أيامهم بالكسل والسكر ، وقد ماتت فيهم روح النضال ... الى ان اطل عبد الناصر على دمشق (وهذا المقصود بالاطلالة السمراء) فأشاع في البطل روح النضال فصمم على العودة الى الاردن ليهيء لعبد الناصر اطلالة جديدة على ضفاف النهر المقدس . المقصود : متابعة النضال .

هذه القصة ، من اقوى القصص التي تبرز نضال الامة العربية وتناقضاتها . انها تتعرض لظاهرة اساسية في تاريخنا القومي ، وهي فئة المناضلين العرب الذين لجأوا الى البلاد العربية هربا من جور حكامهم، كالعراق والاردن. ولكن قسما منهم ما لبث ان استسلم للكسل ولمغريات الحياة ، فانحرف عن القضية العربية وهجر النضال . والقصة فضح لهؤلاء .

أما زواج وليد بالفتاة الانكليزية ، فهو « رمز » لالتقاء البطل في فترة من فترات حياته، بقيم مزيفة كالمال والمجد السريع والنفوذ الحكومي... بقيم مناقضة لقيم بطولته

القومية . وقد انحدر في المزلق كثير من المناضلين ، مما جعل انتصارات القومية العربية في الاردن والعراق تصاب بنكسة تحت سمع وبصر المناضلين الحقيقيين.

في القصة روح ايجابية ، وذلك بتقرير البطل العودة للاردن لمتابعة النضال القومي، وهذه العودة رمز لتمرد البطل على القيم المزيفة ، واستعادته لاصالته .

القمر خلف الجبل

اميرة ... زوجة سابقة لامير من امراء القبائل . تفسر منه وهي لا تزال عذراء . يتعرف عليها بطل القصة . فيقوم نزاع حاد بينهما .. انها تتمنع عليه ، كما امتنعت على كثيرين قبله .

ظاهريا ، اميرة تستقطب الحوادث ، ولكن الحقيقة ان شخصية اميرة ، هي « رد » على نظرة البطل اليها ، فهو الذي يحركها . انها صدى له .

جميع اشخاص القصة ، ما عدا البطل ، في وضوح تام ، البطل ليس غامضا ، بمعنى الابهام وعدم الفهم ، ولكنه لا يعطي الا جانبا منه، وكأنه لا يريد أن يفصح عن ذاته دفعة واحدة . انه نوع من التوتر الداخلي الحي. وينهي مطاع القصة ، بالصلة الجسدية بينهما ، رمزا لخضوع اميرة .

ـ اشخاص القصة ،رموز : أميرة « رمز » لروحية الامة العربية ـ البطل (والمقصود به عبد الناصر) « رمز » للقائد العربي الاصيل . اما تعارفهما ، فهو رمز لالتقاء البطل بروحية الامة ، التي لم تكن في حدذاتها قادرة على منح البطل ساحته الحقيقية .

اما مقاومة اميرة ، ثم خضوعها ، فهي اشارة الى ان الامة تقاوم الرجل العظيم في البداية ، ولكنها لا تلبث ان تنقاد اليه ، وتأخذ طابعها منه ، وزواج اميرة من الشيخ البدوي..مهرب السلاح والحشيش، رمز لتجربة الامة الانحطاطية . اما بقاؤها عذراء ، فهو رمز الى ان الامة العربية قد استعصت على الخضوع لاي فاتح او سياسي دجال ، ولبقائها حية في صميمها رغم كل عوامل الانحطاط .. حتى جاءها بطلها الحقيقي ، عبد الناصر ، فاستسلمت اليه .

القصة مترابطة ، متلاحمة الحوادث .. وتصوير الصراع تصوير رائع ، بأسلوب حي دام .

الكلمة الضائعة

فادية .. فتاه مثقفة مترفة . حياتها بدون هدف وبدون اكتراث . حتى انه لا توجد لديها رغبة للقيام بعمل ما . تذهب الى حفل تدعوها صديقتها اليه، احتفالا بعودة اخيها « خالد » من اوربا . يظهر لنا من سياق القصة ان علاقة سابقة ، كانت بين فادية وخالد . تعزف الموسيقى فترقص فادية امام جميع المدعوين

كان رقصها تعبيرا عن الحيرة الفارغة والنزوع الى المجهول ، وهو بذات الوقت موقف فيه سخرية من كل الاشياء المرتبة حولها .. سخرية من المنطق اليومي للمواضعات الاجتماعية ، وتحطيم للسلسلة الحجرية التي يتقيد بها الانسان اليومي. خاصة خالد ، هذا الرجل الذي حاول ان يجعل من حياته سلسلة من القيم الاجتماعية المرتبة جيدا : سافر الى اوربا ليحصل على شهادة .. وخلف وراءه وعدا بالزواج.. وعاد ليحتل صيغته المهيأة له من قبل .

تسخر فادية من خالد الذي حاول ان يعيد الصلة السابقة بينهما، وتنتهي القصة بعودة فادية الى حياتها الفارغة .. الى سأمها الداخلي العميق .

المزيفون والثورة العظيمة

هذه القصة ، تؤرخ للجيل العربي ، بكل بطولاته وتناقضاته، لنموذجين من الجيل : الثوري العربي الاصيل والثوري العربي المزيف . انها تفضح تجار السياسة والمزيفين من المناضلين ، الذين لا يملكون مؤهلات النضال سوى تبني شعارات الامة ، ومثلها ، والمحاضرات والهتافات ، وبضع مقالات مأجورة !.. انهم يعيشون على حساب نضال الامة العربية التي يزيفون نضالها . انها تصوير لنضال العرب في أعنف قطر عربي..الجزائر لاعنف ثورية في تاريخ الامم .

*

تلك نماذج من قصص المجموعة . وقد قدم لها مطاع بنفسه ، بعنوان : **القصة الاشكالية** . فلماذا اطلق هذه التسمية ، وكيف تكون القصة اشكالية ؟

حسب دراستي للمجموعة ، القصة الاشكالية هي تلك التي تطرح مشكلة . وهذه المشكلة تبدأ بمواقف مألوفة في الحياة اليومية ... وتعمق بعد ذلك حتى تصل الى طرح مشكلة اشمل ، هي : مسألة وجود الانسان العربي كوجود اصيل يستمد قيمه الانسانية والنضالية من تاريخ امته ومن ذاته . وقد التزم الكاتب ، او حقق ، هذا الشرط في مجموعته : ان بطل قصته يبدأ بالثورة على بعض اشكال الواقع الفاسد، المتناقض ، هذه الاشكال التي يواجهها الفرد العربي خلال احداثه الشخصية ، لكنها لا تلبث ان تتحول من ثورية ضد « موقف » معين ، الى ثورية في حد ذاتها . وهذه الثورية او التمرد .. تعبير عن نزوع الفرد العربي الى تجاوز الواقع ، لان الحياة في نظر الفرد العربي، تجدد دائم وعطاء مستمر .

*

آمل ان أكون قد نجحت في اعطاء صورة صحيحة عن المجموعة، منصفا بذلك اول كاتب طرح قضايا امتنا العربية بواسطة الادب ، وكان له الفضل الكبير في اغناء القصة العربية ودفعها مسافات بعيدة الى الامام .

درعا « الاقليم الشمالي »

محمد حيدر

من : «جمعية الادباء العرب»